منهج الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها ـ الواقع والآفاق

د. زرارقة الوكال

تمهيد :

إن العملية التعليمية في أي أمة هي تكاملية تهدف للوصول إلى هدف واحد وغاية واحدة ، وفق منهج مسطر ، وخطة مدروسة، لا يمكن الفصل بين مراحلها المتعاقبة ، فكل مرحلة تكمل سابقتها وتحقق ما سطرته من أهداف.

والمرحلة التعليمية الجامعية هي مرحلة متقدمة من مراحل التعليم ، وخط من خطوط الوصول إلى الأهداف والغايات التي سطرتها الأمة لنفسها وتحقيق استراتيجيتها التنموية على الصعيدين المادي والمعنوي ، وحتى يتحقق للأمة ذلك لا بد من تكامل بين مراحل التعليم فيها.

وتسعى الجامعات في البلاد العربية الى القيام بجملة من الإصلاحات هي بمثابة خطوات ولبنات توطد وترسخ قواعدها في الفضاء العلمي والمعرفي ، ويعمل الباحثون والمهتمون في هذا المجال على إيجاد أنجع السبل للرفع من مستوى التعليم العالي والبحث العلمي، والوصول بالجامعة إلى المستوى الذي يجعلها قادرة على تحقيق أهدافها ، والمساهمة في تنمية المجتمع وتطويره.

ويعدُّ الرفع من مستوى اللغة العربية هدفا جوهريا تسعى الجامعة العربية إلى تحقيقه خاصة بعدما سُجِّل الضعف اللغوي العربي الجلي لدى خريجي جامعاتنا في مجالات التداول اللغوي المتعددة من نحو وقراءة وكتابة لدى المتخصصين في الأدب واللغة خاصة وغير المتخصصين.

وليست ظاهرة الضعف اللغوي في جامعاتنا وليدة اليوم وإنَّما هي ممتدة منذ فترات زمنية سابقة فقد اشتكى كثير من مفكرينا ولغوييننا وكتابنا من تدني المستوى اللغوي لدى متعلمينا « فهي ظاهرة عامة على نطاق وطننا العربي في مشرقه ومغربه،» إذ يرى الدكتور حسام الخطيب في المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب الذي عقد في الخرطوم ، أن الإنسان ليس بحاجة إلى روائز تربوية أو إحصاءات لكي يستنتج أنَّ سوية تعليم اللغة العربية في انحدار مستمر ، وأنَّ الجامعات ودور المعلمين في جميع الأقطار العربية تفرز سنويا أعدادا ضخمة ممن يفترض أنَّهم مختصون بتعليم اللغة العربية ، ومع ذلك تزداد نسبة الأمية اللغوية سنة بعد سنة عند هؤلاء.»(١) وهذه الشكوى المستمرة تدفعنا للبحث عن واقع الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها في جامعاتنا وتشخيصه والكشف عن علله للوصول إلى علاجه ، والتوقف بعد ذلك على الأسباب الحقيقية والموضوعية للتدني اللغوي لدى طلبتنا.

واقع الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها :

إنَّ الباحث عن أسباب تدني المستوى اللغوي لدى خريجي جامعاتنا لا بدَّ عليه أن يقف وقفة تقييمية فاحصة لواقع الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها حتى يتسنى له تشخيص هذا الدرس والوقوف عند إيجابياته وسلبياته فيوطد من الإيجابيات ويعمل على تطويرها وترقيتها ويشخص السلبيات ويعمل على تقويمها وإصلاحها.

ويقدَّم الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها في أغلب جامعاتنا العربية للطالب على شكلين أحدهما في شكل محاضرة تلقينية اختيارية الحضور تعتمد في كثير منها على الإملاء والثاني في شكل درس تطبيقي إجباري الحضور ويأخذ الأهمية في معالجتنا لأهميته ودوره في تكوين الطالب وتنمية قدراته اللغوية والأدبية والمعرفية والبحثية إذا أُحسن استغلاله وإرشاده بما يخدم الأهداف العامة والخاصة للعملية التعليمية. والشكلان بصورتهما الحاضرة في جامعاتنا يفتقدان إلى إستراتيجية موحدة وواضحة المعالم ، ومحددة الأهداف

، فالوضع فيهما متروك للاجتهاد ، فتعددت بذلك المناهج ، وتنوعت طرائق التدريس ، وغابت الخطط العلمية الهادفة والموضوعية ممَّا انعكس سلبا على المتلقي « فغياب الخطط العلمية الموضوعية في تدريس الأدب وإخضاع ذلك إلى مزاج المدرس واختصاصه ، وهذا ما ينعكس على إعداد الدارسين بلبلة وإضطرابا.»(٢)

ويقوم الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها في جميع مواده وتخصصاته وفي شكله الثاني على تكليف الطالب بتقديم عرض بحثي في موضوع محدد ، يقدمه الطالب أمام فوجه بعدما يسجل عناصره ومراجعه التي اعتمد عليها في إنجازه ، ويُتْبع بمناقشة وتقييم وتقويم من الأستاذ، والموضوعات المقدمة في أغلبها نظرية لا تُمكِّن الطالب الباحث من الفهم العميق ومن التأويل والتفسير والاستنتاج والنقد والمناقشة والربط بين الجوانب الأدبية والجوانب اللغوية. و يستمر هذا الدرس الجامعي مع الطالب خلال المرحلة الجامعية كلِّها. وقد لاحظنا أنَّ مجهود الطالب فيه ينحصر في عملية نقل ونسخ المعلومات من الكتب ومواقع الانترنت دون تعليق ومناقشة وفهم واستنتاج. وهذا الشكل من الأعمال قد يعمل على إكساب الطالب القدرة على البحث ، وتمكينه من الممارسة البحثية ، واكتساب أدوات وتقنيات البحث العلمي في حالة المتابعة الجادة والمراقبة المستمرة للطالب ، وتتوقف كذلك على مدى اجتهاد الطالب والتزامه بالموضوعية والأمانة العلمية ، واكتساب أدوات البحث.

إلى جانب هذا فإنَّ الدرس الجامعي في شكله الحالي تميزه العشوائية في اختيار البرامج والفوضى في تحديد المناهج وطرائق التدريس ممّا ينتج عنه انحراف في الوصول إلى الأهداف المسطرة للسياسة العامة للمجتمع والأمَّة من العملية التعليمية. كما أنَّ غياب الأدوات والآليات والوسائل البيداغوجية التي يعتمدها الأستاذ في تقديم الدرس والإشراف على أعمال الطلبة وبحوثهم ينعكس بالسلب على مردود المتعلمين وهنا « يجب أن يكون المدرس قادرا على تعريف وتقييم كفاياته الخاصة قيل التوصل إلى كفايات تقنية في مهنته وفي تطبيقات أخرى. هذا ما يستلزم عملا بارتباطه الخاص بالمعرفة.»(٣) فغياب التخصص والإعداد العلمي والتربوي لدى الإطار الجامعي ، يشكل عاملا معيقا للوصول بالدرس الجامعي إلى المستوى المنشود منه ؛ ذلك أن الذي لا يمتلك ناصية اللغة العربية ولا يمتلك معرفة قوية بموضوعات مادته ، وعدم معرفته لتنظيم العمل في ضوء الزمان والمكان ، وعدم معرفته لآليات التنسيق الخارجي والداخلي ، وآليات الملاحظة والمتابعة والتقييم ، وآليات تحفيز الطلبة ودفعهم إلى البحث والمعرفة واستفزاز قدراتهم الذهنية للمناقشة والاستفسار والفهم ، لا يساعد على تكوين الطالب تكوينا لغويا وأدبيا ومعرفيا. كما لاحظنا غياب التكامل بين مراحل التعليم السابقة التي مرَّ بها الطالب ومرحلة التعليم الجامعي فواقع تعليمية النص الأدبي العربي مثلا في مرحلة ما قبل الجامعة تكاد تكون منفصلة تماما عن واقع تعليميته في المرحلة الجامعية ممّا يجعل المتعلم عندما ينتقل إلى التعليم الجامعي يكتشف تعلما جديدا ، وفضاء علميا مغايرا ، ويندهش أمام تعامل جديد مع النص وقراءته ، ويقف مشدودا أمام الأدوات النقدية المختلفة في فتح النصوص ومعالجتها. والأمر ينطبق على تعليمية النحو ومواد أخرى.

آفاق الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها :

من خلال عملية التشخيص لواقع الدرس الجامعي للغة العربية وأدبها في أغلب جامعاتنا قصد البحث عن أنجع السبل لتطويره وترقيته وللرفع من المستوى العلمي المعرفي واللغوي والأدبي لطلبتنا للنهوض بأمتهم ، ومن خلال تجربتنا في البيئة الجامعية مع الدرس والأستاذ والطالب والبرامج اتضح لنا أنّ هناك معوقات ذاتية وموضوعية تعيق عملية الارتقاء باللغة العربية وأدبها ولجعل هذا الدرس فاعلا ومفيدا ومثمرا في جامعاتنا يتطلب فيما نرى:

١ـ تحسيس الطالب بأهمية واقعه الجامعي الجديد:

إنَّ عملية تحسيس الطالب بأهمية واقعه الجامعي الجديد مهمة جدًّا ذلك أنَّ عملية تغيير ذهنيته من تلميذ متمدرس التي كان عليها في المراحل التعليمية السابقة إلى ذهنية الطالب الباحث ستدفعه إلى عدم الاعتماد

على الأستاذ في عملية التعلم والتكوين والاعتماد على التكوين الذاتي في البحث والتعمق فيه من خلال القراءة والمطالعة والاحتكاك بمصادر ومراجع المعلومات والمعارف خاصة إذا زُوِّد بأدوات البحث في ذلك « والرأي السائد اليوم هو أنَّه لا سبيل أمام الإنسان لكي يتعلَّم إلاَّ طريق التعلم الذاتي ، ومثل المدرس في ذلك مثل المزارع الذي عليه أن يهيئ الظروف المناسبة لنمو النبات والرعاية المطلوبة ، ثم يتركه ينمو من تلقاء نفسه.»(٤) والتعامل معه داخل الدرس كطرف فاعل في إنجاحه من خلال فسح المجال له لعرض أفكاره والإقناع بها وحثه على عدم التسليم بكل ما يقدَّم له من أفكار ومعلومات فنسهم بذلك في تكوين ذات مفكرة ونشعره بوجوده الإنساني الفاعل في حياته الفردية والجماعية ، وندفعه بذلك إلى ممارسة اللغة للتعبير عن آرائه وأفكاره فنتيح له ممارسة الفعل التعبيري والذي تكمن أهميته في التمرس على استعمال اللغة استعمالا صحيحا وتوظيف قواعدها ، وترجمة أفكاره ، وتجسيد فهمه لقراءاته ومطالعاته وفي ذلك يقول أحد المربيين « إنني أجد أنَّ أفكار الناشئة مقدسة . وأرى أنَّه يتوجب احترامها. إنني أحاول أن أترك له حريته الحقيقية ، أنا لا أحاول أن يصنع وظيفته حول ما أفكر فيه ، أحب كثيرا أن يشرح فكرته بنفسه ولنفسه ، بحيث تظهر في كتابته وفي حديثه صورة تفكيره ، فإذا ما فرضنا أفكارنا عليه فإنَّ ذلك لا يعد فكره هو بل فكرنا نحن.»(٥) كما أنَّ ممارسة اللغة في التعبير تسهم في « تفتح الجامعة على العالم المحيط بها ، فتؤثر في الواقع وتتأثر به ، كما أنَّها تساعد على اكتشاف الموهوبين ذوي القدرات الأدبية ، فتعمل على تنميتهم وتوجيههم في الاتجاهات السليمة ، إضافة إلى أنَّ في هذه المناشط علاجا لكثير من المشكلات النفسية التي يعانيها بعض المتعلمين من مثل: الخجل والانطواء على النفس. «(٦)

٢ ـ وجوب وضرورة التكامل بين مراحل التعليم العام والتعليم الجامعي:

تعدُّ عملية التكامل بين التعليم العام والتعليم الجامعي في تدريس اللغة العربية وأدبها سبيلا من سبل تحقيق ، وكأنموذج لتحقيق هذا التكامل اخترنا نشاطا تعليميا هاما سطرته المنظومة التربوية في الجزائر على سبيل المثال وهو نشاط المطالعة الموجهة . فما هو واقعه وأهدافه في مرحلة التعليم العام؟ وما هي آفاقه في التعليم العالي؟ وما هي نتائج التكامل فيه بين التعليم العام والتعليم العالي.

وسنركز على هذا النشاط في مرحلة التعليم الثانوي باعتبارها المرحلة السابقة للتعليم العالي ، حيث يأخذ هذا النشاط أهميته من ملكة النضج الفكري للمتعلم في هذا المستوى الدراسي ، ومن ثم تم اختيار نصوص للمطالعة ذات بعد فكري وثقافي ، ونصوص ذات طابع قصصي ، بغرض تحقيق هذه النصوص قدرة المتعلم على التفاعل معها ، واستثمار معطياتها الفكرية والفنية.

كما أن هذا النشاط يسهم في توسيع آفاق المتعلم وصقل ذوقه وتنمية حبه للاطلاع على نتاج الفكر البشري. وحتى يحقق هذا النشاط أهدافه وجب على المعلم أن يجتهد في تقديمه بأسلوب إبداعي شائق ، تبرز فيه عمليات استقلال المتعلم فهما وتلخيصا وتقييما ، مع مراعاته للمبادئ الآتية :

أنه عمل حر ينجز جزء منه داخل القسم والجزء الأكبر خارجه.

للمتعلمين الدور الرئيس في التنفيذ.

الأستاذ موجه ومرشد ومصوب وحكم يفصل في المناقشات.

وللوصول بهذا النشاط إلى الغاية المرجوة منه وتفعيله في هذه المرحلة ، تتبع الخطوات الآتية في إنجازه:

مطالعة الأثر لتكوين فكرة عامة عنه : نوعه، موضوعه ، طبيعته.

مناقشة بين المعلم والمتعلم لتقويم الفكرة المكونة.

تقييم الأثر مرحليا إلى أجزاء واضحة.

كتابة تقرير عن الجزء المطالع.

المناقشة الجماعية وتصويب الرؤى.

تلخيص الجزء المطالع باحترام تقنيات التلخيص.

الحكم على الأثر المطالع وأسلوبه.

استثمار النص المطالع بالوقوف على قيمه الفكرية والفنية واستخراج الخصائص التركيبية اللغوية ، وإنجاز تدريبات لغوية ، وإنتاج نص وفق نمط الأثر المدروس.

وبقراءة لهذه الخطوات في تقديم هذا النشاط فإننا نصل إلى الاستنتاجات الآتية:

أن هذا النشاط يركز على جوانب هامة وفعالة في الحياة العلمية والعملية للمتمدرس ، فهو يركز على جانب تعويده المطالعة وتحبيبها إليه ودفعه إلى الاهتمام بها ، وتنمية ثروته اللغوية في الألفاظ والأساليب والأفكار وكذلك تنمية مهارات التفكير لديه وتدريبه على النقد والتحليل وإبداء الرأي ، واكتساب مهارات التلخيص ، والتزود بالمعارف والمعلومات.

هذا هو واقع هذا النشاط في مرحلة التعليم العام ، فما هي آفاقه في التعليم العالي؟

الكل يجمع ولا يختلف في ذلك على أهمية المطالعة في إثراء الرصيد المعلوماتي والمعرفي للقارئ عموما وللباحث خصوصا ، فهي في مجال البحث العلمي تكون أكثر أهمية وفاعلية ، لأنها روح البحث ولقاحه . وبما أن الجامعة ميدان البحث وبيئته ، فيها تتفتق قدرات طالب العلم ، وتنبجس مواهبه ، وتتفجر طاقاته الإبداعية والمعرفية ، وهي متنفسه الفكري والفني يحقق من خلالها وجوده العلمي ، ويجسد شخصيته بارتباطه بالفعل والإنجاز في تنشيط عمليته التعليمية ، فيتوجه من خلالها إلى التعرف على ما يجري في واقع حياته وينفتح على بيئته.

ومن خلال الجامعة بيئة المطالعة والبحث يدعم الطالب معارفه التطبيقية بجعل المعارف النظرية التي اكتسبها في مراحله التعليمية السابقة رافدا لها ، ولا يمكنه الوصول إلى ذلك إلا إذا كان عنصر المطالعة والقراءة في حياته العلمية جادا وفاعلا.

وحتى تقوم الجامعة بدورها الحقيقي وتصل إلى تحقيق أهدافها وغايات وجودها ، أن تكون امتدادا طبيعيا للمراحل التعليمية التي سبقتها، فتعمل على تطوير مكتسبات الطالب العلمية والمعرفية القبلية واستثمارها وتجسيدها في حياته الجامعية فلا يشعر بالانفصال والانقطاع ، وكأنه انقطع من بيئة جديدة مغايرة ومختلفة عن سابقتها.

ونشاط المطالعة الموجهة الذي تحدثنا عنه في التعليم العام له أهميته الخاصة في التعليم العالي، ولذلك على الجامعة أن توليه أهمية كبرى وتعمل على تسخير جميع امكاناتها له ، وتستثمره أحسن استثمار ، لأن المطالعة تثري الرصيد المعرفي والعلمي للطالب من خلال:

- الاطلاع على تراث الأمة قديمه وحديثه والتشبع بقيمه وأهدافه.
- الاطلاع على الآثار الأجنبية المترجمة وغير المترجمة وما تحمله من قيم وأفكار.
- تنمية حب الاطلاع لدى الطالب الباحث.
- اكتساب ملكة لغوية وتزويده بوسائل تعبيرية متنوعة.
- اكتساب تقنيات وآليات البحث العلمي والمنهجي وكيفية استخدام المراجع والانتفاع بها.
- اكتساب آليات تنظيم المكتسبات المعرفية والعلمية وكيفية استغلالها وترقيتها.
- اكتساب آلياتالتحليل والاستنتاج والتعليق والتعليل والتعقيب وإصدار الأحكام النقدية ومناقشتها.
- التدرب على إصدار الأحكام بموضوعية والتفاعل معها بروح علمية منطقية.

وحتى تستطيع الجامعة تجسيد ذلك عليها إيجاد السبل التي تدفع بالطالب إلى حب المطالعة والتعلق بها كجزء أساسي في حياته العلمية.

إن غاية الجامعة لا تنحصر في تكوين طالب يتلقى المعرفة ويستهلك المقررات وإنما تتجاوز ذلك إلى تكوين باحث ومفكر ومنتج ومبدع قادر على تحمل المسؤولية في حياته الفردية والجماعية .

ولتفعيل المطالعة في حياة الطالب الجامعية ودفعه إليها وجعلها فاعلة وجادة على الجامعة:

إحداث جسور تواصل حقيقية بينها وبين المراحل التعليمية السابقة.

تفعيل دور الأستاذ الجامعي وذلك بعمله على إدماج الطالب في الفعل العلمي الأكاديمي بكل أبعاده ونشاطاته والحرص على إثارة انتباهه ودفعه إلى التفكير المنظم والاستدلال الصحيح باستغلال مطالعته استغلالا صحيحا.

تفعيل حصص الأعمال الموجهة بجعل المطالعة عملا دراسيا رئيسيا ورافدا من روافد المقرر.وهنا نرى ضرورة التركيز على تكليف الطالب بتقديم عرض حول قراءة كتاب بمنهجية علمية تمكننا من تحقيق جملة من النتائج المثمرة التي تسهم في تكوين

الطالب تكوينا علميا منتجا ومنها:

أ ـ إنجاز فعل القراءة التي تعدُّ من أهمِّ وسائل الاتصال « فهي وسيلة الاتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان في المجتمع ، وهي أداته لكسب المعارف والمعلومات ووسيلته في التعلم والثقافة وبها يستطيع أن يقف على ماضيه وحاضره ، فيفهم مجتمعه ماضيا وحاضرا وتوجها نحو المستقبل ، ويتزوَّد بالفكر فتزداد معارفه وتجاربه ومعلوماته وتتوسع خبراته ويخرج من بيئته الضيقة إلى عالم فسيح يزخر بالفكر والمعارف والعلوم..»(٧)

ب ـ إنجاز فعل الفهم ، فهذا النوع من القراءة المتخصصة الهادفة تنمي قدرات الطالب الذهنية من خلال تفعيل عملية التركيز في المقروء. فهذه القراءة هي « التي يفهم الإنسان من خلالها نفسه ومجتمعه وبيئته وعصره ، حتى يتمكَّن من السيطرة على البيئة والتفاعل مع المجتمع تفاعلا إيجابيا بناء.»(٨) وإنجاز فعل الفهم من القراءة يحقق لنا المهارة العقلية من القراءة « وتشمل ثروة المفردات ومعانيها ، وإدراك الفكرة العامة من المقروء ، والمعاني القريبة ثمَّ المعاني البعيدة ، وأخيرا التفاعل مع المقروء والحكم عليه ونقده.»(٩)

ج ـ إنجاز فعل الكتابة وترجمة ما فهم من المقروء عن طريق تلخيص الأفكار ومضمون النص المقروء.

د ـ إنجاز فعل النقد عن طريق مناقشة أفكار المقروء ، وتحليلها ، والاستدلال على صحتها وعدم صحتها ، أو عن طريق التعليق والتعقيب عليها.

وكلُّ هذه المهارات المنجزة تسهم إلى حدٍّ كبير في تكوين الطالب فكريا وعلميا ولغويا فالقراءة تؤدي ثلاث وظائف أساسية على المستويين الفردي والاجتماعي .فالوظيفة الأولى معرفية والثانية نفسية والثالثة اجتماعية.(١٠)

استغلال حصص الأعمال الموجهة في إكساب الطالب آليات المطالعة الجادة المفيدة ، وتقنيات القراءة والبحث المنهج الصحيح.

العمل على إيجاد آليات تحفيزية لدفع الطالب إلى المطالعة والبحث فتكون ميدانا تنافسيا بين الطلبة.

وبسعي الجامعة إلى الاهتمام بهذا النشاط الجوهري في الحياة العلمية للطالب وتجسيدها في واقعه ومن ثمة العمل على التكامل بينها وبين التعليم العام تكون قد وضعت قدمها الأولى في تحقيق غايتها من وجودها.

٣ ـ ضرورة تحديث المناهج وتجديد طرق التدريس :

إنَّ كثيرا من طرق التدريس في جامعاتنا المعتمدة على التلقين والإلقاء أسهمت بشكل كبير في إدخال الملل على الطالب ونفوره ممَّا يأخذه من مواد ومن ثمَّة عزوفه عن توسعة معارفه ومعلوماته ، فانعكس ذلك على مستواه العلمي المعرفي ومستواه اللغوي. ونأخذ كمثال على ذلك مادة النحو التي تعدُّ من أهم المواد في تدريس اللغة العربية ، والتي يشتكي كثيرا من طلبتنا من صعوبتها ، والحقيقة البينة أنَّ الصعوبة لا تكمن في المادة ذاتها وإنَّما تكمن في الطريقة التدريسية التي تقدَّم بها للطالب « ومن هنا دعا بعض الباحثين إلى إعادة النظر في المادة النحوية التي تدرس لتخليصها مما علق بها من دخيل أو لازمها من مصطلحات ومقولات لا تتصل بها من قريب أو بعيد لقطع دابر الأسباب التي أدَّت إلى عزوف الأبناء عنها ، ولتنقيتها من الشوائب التي لحقت بها على الاَّ تكون هذه العملية على حساب التراث الذي خلَّفه هذا العلم خلال مسيرته الطويلة ، وأثبت قدرته على صيانة اللغة وحفظها من الضياع وقدرتها على الآداء واستيعابها لكل ما تحتاج إليه من مواصفات .»(١١) ونحن نرى ضرورة التفكير في كل ما ييسر السبيل في تقديم مواد اللغة العربية خاصة النحو منها إلى المتعلم بما يجعله راغبا في تعلمه ومتفاعلا معه خاصة إذا ما اتَّجه تعليم مواد اللغة العربية نحو الوظيفية والنفعية الاجتماعية ، وربط تعليم اللغة العربية بمحيط المتعلم وواقعه « إذ لا فائدة من تعليم أي مادة إذ لم يكن لها نفع اجتماعي وفائدة للمتعلم في تفاعله مع المجتمع.»(١٢) ومن الطرق التدريسية التي نراها محققة لاستثارة دوافع الطالب للإقبال على تعلم النحو بشوق ورغبة ، عرض المادة النحوية من خلال تذوق النص الأدبي أي تقديم النحو عن طريق النقد. فقد عرفت غاية النحو في العصر الحديث في استكشاف العمل الأدبي تطورا متميزا منظرا بقواعد وأسس محكمة و قابلة للتطبيق ، فقد اهتدى المهتمون بدراسة

النصوص الإبداعية إلى الدور الكبير الذي يقوم به العامل النحوي في إضاءة النص و تفسيره،و رأوا بأن النحو لا يحصر عند المشتغلين بالمثل اللغوية أي في إقامة الحدود بين الصواب و الخطأ ، أو لا يرون الصواب ر أيا واحدا . ورأوا بأنَّ النحو يدخل في إطار العملية الإبداعية مثله مثل بقية عناصر الإبداع الأخرى (فالنحو مشغلة الفنانين والشعراء . والفنانون هم الذين يفهمون النحو ، أو هم الذين يُبْدِعون النحو ، فالنحو إبداع»(١٣) فالمبدع شاعرا كان أم ناثرا يستخدم القواعد النحوية للوصول إلى تفعيل عمله الإبداعي وجعله أكثر تأثيرا وتوضيحا لما يريد الوصول إليه. إلى جانب فقه الكثير لوظيفة النحو ومهمته التي تتجاوز تصحيح التراكيب والعبارات بل تتعداها إلى المعاني الجزئية(فيظهر أثره الواضح في حسن التأليف وسلاسة العبارة والحرص على دقة المعنى ووضوحه، فالنحو لا يقف عند حركات الإعراب بل يشمل موسيقى العبارات ومنطق المعاني.»(١٤(

فالنقد في تعامله مع النص الأدبي والوصول إلى استكشافه ومعرفة مكنوناته وأسراره يتخذ من معرفة خصائص البنية المفردة المستعملة فيه أحد مفاتيحه للولوج في أعماقه فيبحث ف الأسماء والأفعال ويصنف الأسماء (النكرة والمعرفة ، والمشتقة والجامدة» ويتعرف على الأفعال ومدى اكتساحها للنص أو عكسه ، وما طبيعة الأفعال المسيطرة ومبرران ذلك «فبدراسة الأفعال وتشريحها يتبين لنا كيف وظف الأديب الزمان وتعامل معه في نصه ؟ أما بدراسة الأسماء والصفات فسيتبين لنا كيف وظف الأديب الحيز على امتداداته المختلفة فإذا هو أفقي أو عمودي أو منظوري أو جانبي أو غير ذلك من الأحوال التي يصعب حصرها بسهولة. فالنقد عند دراسته للأفعال المستعملة في النص عليه أن يحدد زمانها الموزع بين الماضي والحاضر والمستقبل (فحين نذكر الماضي يجب أن ننتبه إلى أنَّه قد يكون ماضيا يضطلع بوظيفة زمانية أساسة ، وماضيا آخر لا تتم وظيفته الزمانية إلاَّ بذكر قرائن لفظية تكمله وتوضحه ، ونحو ذلك يقال في المضارع الذي قد يكون مضارعا صورة ودلالة (وهي أبسط صورة) ومضارعا صورة لا دلالة ، ومضارعا دلالة لا صورة»(١٥) ، ويتمكن النقد من خلال ذلك إلى التعرف على البنى الإفرادية وخصائصها الألسنية ، وتكتمل صورة العناصر الأساسية التي يتشكل منها النص في مادته ، وتبين دلالاته المعنوية ، فيتكشف من المعنى ما كان محجوبا، ويتجلى ما كان غامضا.

ومن النتائج التي يستكشفها النقد من خلال مفتاح النحو المعنى الثابت الجامد والمعنى المتسم بالحركة والفعل ، والدلالات من التقديم والتأخير في الجملة وتأثيرها في الكلام ، وكشف دلالات الأبنية وتمايزها عن بعضها البعض وما تنفرد به كل بنية من حيث دلالتها ، فبنية المصدر غير بنية الاسم ، وغير بنية الفعل ، وصيغ المبالغة ، وأسماء الفاعلين والمفعولين وغيرها.

فالنقد من خلال النحو يسعى إلى معرفة المعنى الذي صيغت به الجملة في صيغتها النحوية،فقد يكون المعنى محددا أو محتملا عدة فرضيات كالإيحاء أو الرمز، فتفهم أو تفسر الطبقة الأولى من المعنى وتليها الطبقات الأخرى. فدراسة النقد و تحليله للجملة ينطلق من أهمتها في النظام النصي لأن (الجملة هي الغاية الأولى لكل نظام نحوي ، إذ يعمل على كشف تركيبها، و يحاول أن يربط بين الصورة الصوتية المنطوقة لها والمعنى المراد منها من خلال النظام العقلي الذي يعكسها.)(١٦)

فهذه بعض الأمثلة التي سردناها لتوضيح ما للجانب النحوي من أهمية في استكشاف معالم النص و التعرف على دلالاته البعيدة و القريبة،و توضيحه و تفسيره و استخراج طاقاته.

فغاية النحو التي اهتدى إليها بعض المتأخرين من خلال دراساتهم النقدية المبنية على أسس علمية وإن اختلفت في رؤيتها للنص الأدبي و قراءتها له ما هي إلا خطوة راشدة و ناضجة في إخراج غاية النحو من دائرة تحديد الصواب و الخطأ في الكلام إلى دائرة اوسع أفقا ، و اكثر عمقا في التعامل مع النصوص الأدبية و استكشاف أغوارها ، و هي في حقيقة أمرها رجوعا إلى الفطرة و النظر الصحيح. ومن هذه الأهمية التي تربط النقد بالنحو ، والنحو بالنقد فلماذا لا نستغل ذلك في تعليمية النحو ؟، وتقديمه بطريقة جديدة لمتعلمينا تجعلهم أكثَرَ تلق له ، وأكثَرَ حماسة في اكتشافه واكتسابه والتعلق به ، عوض الطريقة التقليدية

الجدارية التي يتم بها تلقينه للمتعلمين والقائمة على التمثيل والشرح والتقعيد ، والتي تجعل منه علما جافا غير مستاغ ، وغير مفهوم ، وينتج عنه الصدُّ والنفور. أمَّا الطريقة الجديدة التي تتم فيها تعليمية النحو عن طريق التحليل النقدي للنص فإنَّها تخرج النحو من دائرة التجريد والتقعيد والغموض ، إلى فضاء وأفق أوسع تتداخل فيه مجالات متعددة ، وعناصر تحليلية متنوعة ، منها ما يمس المجال الفكري والوجداني وما يمس المجال البلاغي والبياني وما يمس المجال الإيقاعي ، وهذه المجالات المتعددة في تحليل النص تصبُّ كلُّها في قراءة النص واستقرائه ممَّا يجعل من المجال النحوي مجالا مندمجا مع مجالات تحليلية أخرى لا مجالا منفردا ومنعزلا ، فينتج عن ذلك رغبة المتعلم في الاندماج في فهم النص وفهم العناصر المكونة له ، والبحث عن دلالاتها القريبة والبعيدة.

ونرى بأنَّ المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة تستجيب بشكل كبير وواسع لعملية تعليمية النحو بالاستناد على التحليل النقدي ، ومن هذه المناهج المنهج البنيوي الذي يرى في النص (بنية متلاحمة العناصر ، بنية كبيرة تحتوي على بنى متفاوتة من حيث الطول ، فهناك وحدات صغرى كالبنية الصوتية والصرفية ، وهناك وحدات أكبر كالبنية التركيبية ووحدات كبرى مثل البنية السردية أو الوصفية أو الحوارية.»(١٧)

ففي تناولنا لتحليل نص وفق المنهج البنيوي مثلا نستغل الجانب التحليلي الخاص بالبنى الصرفية والبنى التركيبية للتركيز على معارف نحوية وصرفية في إطار تذوق النص والاهتمام بالعناصر المكونة له والحقل الدلالي الذي ينتمي إليه ، وإبراز العلاقات بينها للوصول إلى دلالته. وهكذا يتم إيصال مادة نحوية وصرفية للمتعلم عن طريق البحث عن دلالة النص من خلال عناصر بنائه اللغوي.

ويسمح لنا كذلك التحليل الأسلوبي للنص الأدبي تحقيق تعليمية النحو لأن الأسلوبية تهتم في تناولها للنص بالخصائص الأسلوبية على المستوى الصوتي والإيقاعي وعلى المستوى الصرفي وعلى المستويين التركيبي والدلالي.

وقد نستغل كذلك تحليل النص تحليلا سيميائيا في إثارة حفيظة المتعلم ، وتفعيل تفكيره ، وتحفيز رغبته في الكشف عن الدلالة العميقة للنص التي يُعدُّ الجانب النحوي أداة ووسيلة من وسائل الوصول إليها فهو يقف على مستويات النص المختلفة الصوتية والتركيبية والدلالية.

٤ ـ تكوين الإطار الجامعي :

يعدُّ الإطار الجامعي ركنا أساسيا في العملية التكوينية للطالب ، ولذلك حتى تصل هذه العملية إلى هدفها ومبتغاها فإنَّ الإطار الجامعي للغة العربية وأدبها لابدَّ أن تتوفر فيه مجموعة من المميزات لتكوين فاعل وصحيح لطلبة العربية ومنها :

التحدث بالفصحى :فالتزام الأستاذ بالتحدث بالفصحى يؤدي إلى تعزيز مهارة التحدث بها من قِبل المتعلمين «فالتزام الفصيحة في أجواء المحاضرات ، وتحدُّث الطلبة بها تحت إشراف المدرس وتوجيهه وتشجيعه ، وممارسة المناشط المختلفة بالفصيحة ، وتبني الفصيحة في الإذاعة المسموعة والمرئية وفي الكلمة المطبوعة ، يساعد ذلك كلَّه على النهوض باللغة والارتقاء بها.»(١٨) ويؤدي عدم الحديث بالفصحى إلى زيادة الفجوة بينها وبين أبنائها فتعطى الشرعية لغير الفصحى وتظهر الفصحى وكأنَّها لغة أجنبية في وطنها وبين أبنائها.

التواصل الاجتماعي: يعدُّ الأستاذ الجامعي ركنا أساسيا في عملية الاتصال الاجتماعي فهو عنصر مؤثر في طلابه ومتأثر بهم ، فعملية التدريس لا يمكن لها أن تصل إلى المستوى المطلوب إلاّ إذا كانت إنسانية.

وإلى جانب ذلك فإن عامل التخصص والتمكن منه يساعد على السير بعملية ترقية اللغة العربية وأدبها إلى ما نأمله ، لأنَّ فاقد الشيء لا يعطيه.

وخلاصة القول أنَّ الضعف اللغوي المسجل عند خريجي جامعاتنا العربية تعود أسبابه إلى عدَّة عوامل من أهمها منهج الدرس الجامعي في صورته الحالية حيث يفتقد للرؤية العلمية ، وتغيب فيه الأهداف المعرفية العامة التي تربط مواد اللغة العربية ، في المصادر والمراجع باللغة أولا ، وبالمجتمع العربي ثانيا . إلى جانب تعدد المناهج وطرق التدريس المستخدمة ، وضعف التأطير ، وعدم الجدية في استغلال الوسائل التعليمية المساعدة والميسرة

لتعليم العربية ، وعدم استخدام شبكات التقويم العلمي للوقوف على حقيقة المستوى وواقعيته عند طلبتنا ، إلى جانب غياب رؤية موحدة في ربط الجامعة بالواقع وبأهمية وظيفية المناهج ونفعيتها الاجتماعية.

وللخروج من هذه الوضعية لابدَّ أن تتظافر الجهود لتسخير واستغلال كل وسيلة مساعدة على النهوض باللغة العربية والارتقاء ، خاصة وأنَّ جامعاتنا تتوفر على كل الإمكانيات المساعدة على ذلك.

الهوامش :

١ ـ محمود أحمد السيد ، تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٩٠،

٢ـ المرجع نفسه ، ص. ١٩٦.

٣ ـ محمد شرقي ، مقاربات بيداغوجية ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠١٠ ، ص. ٦٥.

٤ـ محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص.٢١٢

٥ـ محمود أحمد السيد ، الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها ، دار العودة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠م ، ص.٩٧.

٦ـ محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص.٢١٣.

٧ـ محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص. ١٤٦.

٨ـ محمود أحمد السيد ، الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها ، ص. ٥٩.

٩ـ المرجع نفسه ، ص.٦١.

١٠ـ ينظر محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص.. ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٤٩.

١١ ـ محمد الهادي الطرابلسي ، حظ المشرق العربي من البحث الألسني ، ص٣١٣، نقلا عن محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص. ٢١٧.

١٢ ـ محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص. ٢١٦.

١٣ ـ مصطفى ناصف ، النحو والشعر ، في مجلة فصول، العدد الثالث أفريل ١٩٨١م ، ص.٣٦.

١٤ ـ أحمد الشايب ، الأسلوب ، ٢٠٠٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١٢ ، ص ١٨.

١٥ ـ عبد الملك مرتاض ، النص الأدبي من أين وإلى أين ؟ ، ١٩٨٣م ، ص. ٦٥.

١٦ ـ حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، ١٩٨٣م ، مصر ، ط١ ، ص. ١٥.

١٧ ـ فاتح علاق ، في تحليل الخطاب الشعري ، ٢٠٠٨م ، دار التنوير ، الجزائر ، ط٢ ، ص. ٦٧.

١٨ ـ محمود أحمد السيد ،تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح ، ص. ٢١٢.